أصداء من الجزيرة

obeikandl.com

obeikandl.com

مِنْ بَعيد

أكتب هذا وماتزال ملء مسمعى أصداء آتية من بعيد ، لسمر أدبى ممتع ، ملأ إحدى أمسياتنا الحافلة فى شرق الجزيرة حين اجتمعنا بإخواننا علماء « القطيف » ، وأدبائها على ساحل الخليج .

* * *

كانت زيارتنا لهذه المنطقة النائية على غير موعد ، فما دار بخلدنا ونحن نتهيأ للسفر إلى جزيرة العرب ، أننا قادرون على أن نبلغ أقصى مشرقها . فى رحلة ضئيلة الزاد ؛ لولا ضيافة جلالة عاهل الجزيرة ، هيأت لنا أن نذهب حيث شئنا على متن الطائرة ، فطُويت لنا الأبعاد واستطعنا أن ننتقل من الحجاز إلى نجد فالأحساء فالخليج . . .

هنالك ذكرنا « القطيف » فيما ذكرنا ، ورأينا حقًّا علينا أن نلم بمكانٍ لعب فى تاريخنا الدينى والسياسى والأدبى دوراً ذا بال .

وماكان يُغفر لنا أن نكون بالأحساء ثم لا نزور منطقة البحرين التى كانت منزل «بكر بن وائل ، وعبد القيس» وفى ربوعها نشأ شعراء فحول ، لهم فى الأدب العربى مكان أى مكان . ومن وراء مرتفع الصمَّان[1] الصخرى الذى يتوسط بينها وبين الدهناء فيعزلها عن نجد ، تسللتْ جموعُ « القرامطة »[2] فى القرن الثالث الهجرى ، حتى إذا جاوزوا الأحساء اندفعوا كإعصار مارد ، يُلقون الرعب فى القلوب ويعيثون فى الجزيرة فساداً ، ويأخذون طوائف الحجيج عاماً بعد عام ، فيقتلون مسرفين فى القتل ، ثم يعودون بالأسرى إلى هَجَر[3] . وما جاء القرن الرابع حتى كان زعيمهم «أبو طاهر الجنابى

---

(١) الصمان : مرتفع صخرى متاخم للدهناء . قيعانه عذبة المياه ، ورياضه معشبة . انظر معجم ياقوت ٥ / ٣٨٣ .

(٢) القرامطة : جماعة متمردة ، عاثت فى الشرق الإسلامى فساداً فى القرن الثالث الهجرى ودوخت الدولة العباسية .

(٣) هجر : قاعدة البحرين ، ومقر عصابة القرامطة ، التى أرادت أن تجعل من (هجر) المركز الدينى للإسلام ، بدلا من مكة . راجع (تاريخ أبى الفدا ٢ / ٩٠ ، ومعجم ياقوت ٨/٤٤٦) .

القرمطى »[1] يتسلق أسوار البصرة فى نحو ألفين من رجاله ، ويغلب على الكوفة ويتسلم الأنبار ويفتك بعسكر للدولة عِدَّته بضعُ عشرات من الألوف ! .

أجل ، كان حقًّا علينا ونحن فى الأحساء أن نلم بالقطيف ومنطقة البحرين ، فمضينا ونحن نردد قول الشاعر :

وتركْن عنترَ لا يقاتل بعدَها أهل القطيف قتالَ خيلٍ تنفع !

وقول الآخر :

نصحت لعبد القيس يوم «قطيفاً» فما خيرُ نصحٍ قيل لم يُتقبلِ؟

فقد كان فى أهل القطيف فوارسٌ حماة إذا ما الحربُ ألقتْ بكلكلِ

* * *

سارت بنا السيارات إليها فى الطريق الصحراوى المعبد من ميناء الدمام ونحن نرنو فى صمت إلى الصحراء الممتدة ، وقد أذابت شمسُ الأصيل فيها أشعتها الذهبية الغاربة ، وألقتْ عليها غلالة رقيقة متموجة . ولاحتْ لنا « القطيف » من بعيد ، واحةً ناضرة على حافة الصحراء ، وجنة خضراء على طرف القفر المجدب ، ومراحاً خصباً عامراً شمالى الربع الخالى . وقد تعلقت بها أبصارنا ، حين بدأت السيارات تتعثر فى دروب ضيقة ، تحف بها البساتين عن يمين وشمال ، وتجرى فيها الغُدران فياضةً بمياه العيون والآبار .

وتهادى إلينا نسيم المساء رخيًّا عليلاً معطراً بأريج الأزهار وشذا الثمار ورائحة العشب ، وبزغت أضواء الشفق الوردى فتوجت هامات النخل الباسقات ، ثم نفذت من بين السعف واستلقت فى وهنٍ وتَراخٍ على صفحة الغدير المتألق ، وفوق العشب الندى ، غيرَ مكترثة لصراخ أبواق السيارات ، ولا عابئة بنباح الكلاب فى آثار القطعان .

وكذلك استغرقنا نحن فى خمول هنىء ، لم نكد نفيق منه إلا على هتاف أهل « القطيف » وقد خرجوا بمشاعلهم يستقبلون ضيوفَهم أبناء النيل .

وأبى الكرام أن يكتفوا منا بحفلة الاستقبال فى دار « السيد حَمُّود : أمير القطيف » أو جولة عابرة فى المنطقة ، بل دعونا إلى مجلس حافل أُعِد لنا فى بستان الوجيه « السيد عبد الله إخوان » أحد الأدباء الأعيان .

وكانت أمسية لا تنسى !

---

(١) أبو طاهر القرمطى : سليمان بن الحسن أبى سعيد ، زعيم القرامطة ، مات بالجدرى فى هجر سنة ٣٣٢ هـ . راجع (تاريخ أبى الفدا ٢/٩٠) .

لم يبق فى القطيف من لم يسع إلى مجلسنا هناك ليلقى إلينا كلمة تحية وعتاب :

أما التحية فلمصر العزيزة الغالية ، قبلة أنظار الشرق العربى ، ومهوى عقول أبنائه ، وكعبة الرواد والقاصدين من طلبة العلم وراغبى الثقافة .

وأما العتاب فلأدباء مصر الذين نسوا أن فى شرق جزيرة العرب واحةً اسمها القطيف ، شاركتْ فى صنع تاريخنا الإسلامى وتركتْ فى تراثنا الأدبى أثرها الباقى الذى لا يزول .

إن « دارين »[١] ماتزال هناك ، ترجع صدى أغانى « النابغة[٢] الجعدى » و « الفرزدق »[٣] وغيرهما من الشعراء الذين لم يجدوا ما يشبهون به عرف الحبيبة أذكى من مسك دارين . وإن بساتين « هَجَر » باقية حتى الساعة ، مثمرة غناء ، تبتسم للضاربين فى الصحراء ، وتعدهم الظل والتمر والماء ، كما كانت فى قديم الزمان يوم ضرب العرب بها المثل :

« كحامل التمر إلى هجر »

وهناك ، ماتزال آثار من الكُعَيْبة تروى قصة ذلك الحلم الأحمق الذى راود « أبا طاهر القرمطى » وزيَّن له أن يجعل من « هَجَر » وارثةً لمكة ، فوافى البلدَ الحرام إبانَ موسم الحج من سنة ٣١٧ هـ ، ودخله فى تسعمائة من شيعته ، فقتل أميرَ الكعبة ، وفتك بألوف من الحجيج فى المسجد وفى فجاج مكة ، وقلعَ بابَ الكعبة ، وانتزعَ الحجر الأسود ثم اعتلى سطح البيت وهو يصيح :

أنـا بـالله وبـالله أنـا يخلق الخلقَ وأفنيهم أنا !

قيل إنه قتل بفجاج مكة وظاهرها ، زهاء ثلاثين ألف نفس ، غير مَنْ سَبى من نساء وغلمان . وأقام بمكة ستة أيام ثم عاد فى موكبه الحافل يحمل الحجر الأسود إلى « هَجَر » فبقى بها هذا الأثر المقدسُ نيفاً وعشرين سنة ، حتى أعاده القرامطة إلى مكة عام ٣٣٩ هـ وهم يقولون :

« رددناه بأمر من أخذناه بأمره ! »

---

(١) دارين : فرضة بالبحرين ، يجلب إليها المسك من الهند ، وقد تغنى الشعراء بمسكها . راجع (معجم ياقوت ٢/ ٥٣٧ ومعجم ما استعجم للبكرى ١/ ٣١٥) . .

(٢) النابغة الجعدى : أبو ليلى بن عبد الله – شاعر جاهلى مقدم ، أدرك الرسول عليه الصلاة والسلام وأنشده شعراً ، راجع (الإصابة ، وطبقات الشعراء لابن سلام والأغانى ٥/ ١ ط دار الكتب) .

(٣) الفرزدق : همام بن غالب بن صعصعة . أحد أمراء الشعر الثلاثة فى العصر الأموى ، وأبرعهم فى الفخر ، انظر (الأغانى ٩/ ٣٢٤ ط دار الكتب) .

أما تستحق بلاد البحرين بعد هذا لفتة من أدباء مصر ، ودارسى التاريخ الإسلامى والأدب العربى ؟

إنهم ليحجون إلى الحجاز ألوفاً ذات عدد كلَّ عام ، وإن منهم من ينتدب للعمل أو التدريس فى البحرين واليمن والكويت ، فهلا ألمّ بالقطيف من كل أولئك زائر ؟

* * *

وهى ، على الهجر الأليم ، لا تكف عن ذكر مصر ، وتتبع نهضتها العلمية والأدبية ، إنها فى معزلها النائى المهجور على ساحل الخليج ، تستورد البضاعةَ الأدبية من ضفاف النيل ، وتعرف عن سير الفن والحياة بها ، وأعلام الأدب والفكر فيها ، ما قد يجهله المصريون أنفسهم ، لا أكاد أستثنى منهم سوى قلة من خاصة المتعلمين .

كم تألمت وأنا أصغى إلى حديث أدباء القطيف عن مدارسنا الفكرية ومعاركنا النقدية ومذاهبنا الفنية ؟ ! كم خجلت وأنا أرى فى أيديهم كتبنا ومجلاتنا ، نحن الذين لا نشعر بهم أو نلقى إليهم بالا ؟ كم تأثرت وأنا أسمع الشاعر « عبد الرسول الجشى » يُعرفنا ببلده الذى هو قطعة من وطننا العربى :

هذى بلادى وهى ماضٍ عامر ... مجداً ، وآتٍ – بالمشيئةِ – أعمرُ
ألقى عصاه على فسيح ضفافها ... وعلى الجزائر ، عالَمٌ متحضرُ
وأذلَّت التيارَ تحتَ شراعِها ... فلها عليه تحكمٌ وتأمُّرُ
وترى السفائن بالتوابلِ والحُلَى ... والعطرِ من بلدٍ لآخرَ تُحْمَلُ
شهدتْ موانى الهند خفقَ قلوعها ... فكأنها فوقَ المياه الأنسُرُ
ولها على وادى الفرات ودجلةِ ... فضلُ المعلم وهو فضلٌ يؤثَر

* * *

وأتت «ربيعةُ» وهى غُرَّة يَعْرُب ... وأذبُّها يومَ الكفاح وأصبرُ
وأعزُّها جاراً وأكثرها قِرًى ... إذ يمحُلُ البلد الخصيبُ ويُقْفِرُ
فرأتْ بها الوطنَ الخصيبةَ أرضُه ... للماءِ فيه تدفقٌ وتفجُّرُ
والنخل وارفة الظلال كأنها ... جيش كثيف بالخليج مُعَسكِرُ
تهدى لها الصحراءُ فى السحَرِ الصَّبَا ... فتمر كالحلم اللذيذ وتخطر
والبحرُ يُهديها اللآلِئَ زينةً ... وتجارةً فيها الغِنى يتوفَّرُ
وكصفحةِ المرآة جوٌّ مُشرِقٌ ... وكلوحةِ الفنان رِيفٌ مُزْهِرُ

ورأت بها لغةُ العروبة بيئةً شعريةً توحى ، وجوًّا يسحر
فإذا الضفافُ نشائدٌ مسحورة وكأنما فى كلِّ حَلْقٍ مِزْهَر
الملهَمون المبدَعون تسابقوا فيها بمَدرجَةِ الخلود وشمَّروا
شعراءُ «عبد القيس» تهزِج بالهوى فيجيبها من «بكر» رهطٌ أشعر
فيها جنى «ابن العبد»[1] حُلو شبابِه راح وريحانٌ ، ووجهٌ أقمر
وخيالُ «خولة»[2] يستثير غرامه فيظل فى أطلالها يتحسَّرُ
والجعفرِ الخطّى فنٌّ خالد وروائع غنَّى بهن السَّمر

* * *

على مثل هذا كان يدور السمر فى أمسيتنا ببستان الأخ «السيد عبد الله إخوان» فى القطيف . والآن وقد رجعت إلى مصر ، أرى حقًّا علىَّ أن أنقل إلى قومى بعض أصداء ذاك المجلس الأدبى ، ليعلموا أن على ساحل الخليج فى أقصى الشرق من جزيرة العرب ، علماء مجتهدين وشعراء ملهمين ، يتطلعون إلى مصر ويحتفون باسمها ، ويباركون ثمار نهضتنا فى العلم والفن ، «ويعتزون – كما قال الأخ السيد حسن بن على أبو السعود – بما بيننا من روابط الدم واللغة والعقيدة ، ويُكنِون لأبناء الكنانة كلَّ تقدير ومودة ، ويرون فى الثقافة المصرية المورِدَ العذبَ النمير» .

ويالها من روابط عزيزة تجاهلناها نحن فلم نؤد ما لها علينا من حق ، وتشبث بها إخواننا هناك ، فما كادوا يروننا حتى هتف مضيفنا الكريم : «ليت هذه الزيارة التى طالما رنونا إليها ، تكون فاتحةَ تعارف وهمزة وصل بيننا وبين مصر الشقيقة . وما أمَسَّ حاجتنا إلى هذه الأخوة وذاك التعارف ، حتى نصبح ، نحن بنى الضاد ، كالبنيان الواحد يشد بعضه بعضاً ، وكالجسم الواحد إذا اشتكى منه عضو تألم له سائر الأعضاء» .

وقال الأديب «محمد سعيد الشيخ الخنيزى» :

إن بيننا وبين الصفوة الأمناء من أدباء مصر ومفكريها ، تياراً متصلاً فى الفكر والروح ، مهما تنأ بنا الديار ، وتفصلنا بيداء وبحار :

---

(١) ابن العبد : طرفة ، الشاعر الجاهلى المشهور .

(٢) خولة : حبيبة طرفة ، وفيها يقول ، فى مستهل معلقته :

لخولة أطلاط ببرقة ثهمد تلوح كباقى الوشم فى ظاهر اليد
وقوفاً بها صحبى على مطيهم يقولون لا تهلك أسىً وتجلد

إن القطيفَ ومصر شعبٌ واحد فى المبدأ السامى وفى الأفكار
فتى نرى هذى الصفوفَ توحدت ترمى العدوَّ بمارج من نار؟

وقال الشاعر « محمد سعيد الجشى » :

هذى القطيف شيوخها وشبابها هبَّتْ تحييكم بكلّ لسانِ
فلتُخبروا مصرَ العزيزةَ أننا أخوَانِ فى الأوطانِ والأديان
هذى ربوعُ العُربِ مهدٌ واحد لا فرقَ بين بعيدِها والدانى
وشعوبُها أمَمٌ موحَّدة الهوى فى كلّ ما يرمى لرفع كِيَان

لبيكم أيها الإخوان الكرام ! هانذى أبلغ الرسالة وأسجل أصداء ما سمعت منكم هناك ، فهل ترى يبلغ صوتى مسمع الأدباء والدارسين من بنى وطنى ؟ !

أرجو ، وآمل . .

وتحية طيبة ، يحملها هذا الكتاب إليكم وإلى أهل الجزيرة جميعاً . .

مصر الجديدة : مايو ١٩٥١ **من بنت الشاطئ**